مجموع مؤلفات ابن سعدي (٦٩)

حسن الخلق

تأليف
الشيخ العلامة
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله



كم في الكتاب والسنة من النصوص الحاثة على حسن الخلق، المثنية على أصحابه، الذاكرة ما لهم من الفضائل والفواضل، وذلك لما اشتمل عليه من الخلق الجميل، وما يترتب عليه من المنافع والمصالح العامة والخاصة، فمن أجل فوائده:

امتثال أمر الله وأمر رسوله، والاقتداء بخلق النبي ﷺ العظيم. وإنه في نفسه عبادة عظيمة تتناول من زمان العبد وقتا طويلا وهو في راحة ونعيم مع حصول الأجر العظيم.

ومن فوائده: أنه يحبب صاحبه للقريب والبعيد، ويجعل العدو صديقا، والبعيد قريبا، وبه يتمكن الداعي إلى الله والمعلم للخير من دعوته، ويجمع الخلق إليه بقلوب راغبة، وقبول واستعداد، لوجود السبب، وانتفاء المانع: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهو بنفسه إحسان قد يزيد على الإحسان المالي «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعهم منكم حسن الخلق**»[1]. فمتى اجتمع الأمران، فهو الكمال، ومتى فقد الإحسان المالي ناب عنه حسن الخلق والإحسان الحالي والمقالي، فربما صار له موقع أكبر من نفع المال.

وبالخلق الحسن، وطمأنينة القلب وراحته يتمكن من معرفة العلوم التي سعى لإدراكها، والمعارف التي يفكر في تحصيلها.

---

(١) البزار (٨٥٤٤)، أبو يعلى (٦٥٥٠).

وبه يتمكن المناظر والمخاصم من إبداء حجته، وفهم حجة صاحبه، ويسترشد بذلك إلى الصواب قولا وعملا، وكما أنه سبب لهذين الأمرين في نفسه، فهو من أقوى الدواعي لحصولهما لمن خاصمه أو ناظره «**إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[1].

وبالخلق الحسن يسلم العبد من مضار العجلة والطيش لرزانته وصبره ونظره لكل ما يمكن من الاحتمالات، وتجنب ما يخشى ضرره.

وبالخلق الحسن يتمكن من الوفاء بالحقوق الواجبة والمستحبة والأهل والأولاد والأقارب والأصحاب والجيران والمعاملين وسائر من بينه وبينه مخالطة أو حق، فكم من حقوق أضيعت من جراء سوء الخلق، وإن حسن الخلق ليدعو إلى صفة الإنصاف؛ فإن صاحب الخلق الحسن يسلم غالبا من الانتصار لنفسه، والتعصب لقوله؛ لأن الانتصار للنفس والتعصب يحمل على الاعتساف وعدم الإنصاف، وإن صاحب الخلق الحسن في راحة حاضرة ونعيم عاجل، فإن قلبه مطمئن ونفسه ساكنة، وهذا مادة الراحة العاجلة، وطيب العيش، كما أن سيئ الخلق في شقاء حاضر، وعذاب مستمر، ونزاع ظاهري وباطني مع نفسه وأولاده ومخالطيه، يشوش عليه حياته، ويكدر أوقاته مع ما يترتب على ذلك من فوات تلك الآثار الطيبة، والتعرض لضدها، وبهذا ونحوه يتبين معنى قوله ﷺ: «**إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[2].

فإن قلت: إذا كان حسن الخلق له هذه الفضائل والآثار الحسنة، فهل للاتصاف به أسباب يتمكن العبد من فعلها؟ أم هي مجرد موهبة؟

قلت: ما من صنعة حميدة ظاهرة أو باطنة إلا وقد يسر الله للعبد حصولها، ونهج الطرق الموصلة إليها، وأعان عليها بكل وسيلة، وكلما كملت الصفات، كثرت الطرق المفضية إليها، مع أن الغرائز والطبائع الأصلية أعظم عون عليها، وصاحبها إذا سعى أدنى سعي أدرك مراده.

---

(١) مسلم (٢٥٩٣).

(٢) أحمد (٢٥٠١٣)، أبو داود (٤٧٩٨).

فاعلم أن من أعظم ما يعين على هذا الخلق الجميل التفكر في الآثار السابقة المترتبة عليه، فإن معرفة ثمرات الأشياء وحسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها والسعي إليها، وإن عظم الأمر واعترضت الصعوبات، فإن المواراة إذا أفضت إلى ضدها هانت وحلت، وكلما تصعبت النفس عليه ذكَّرها تلك الآثار وما تجتني بالصبر من الثمار، فإنها تلين وتنقاد طائعة، منشرحة الصدر، محتسبة راجية حصول تلك المطالب.

ومن أعظم الأسباب علو الهمة، ورغبة العبد في مكارم الأخلاق، وأنها أولى ما اكتسبته النفوس، وأجل غنيمة غنمها الموفقون، فبحسب قوة رغبته في ذلك يسهل عليه نيل هذا الخلق الجميل.

ومن الأسباب أن يتأمل هل يجلب له سوء الخلق إلا الأسف الدائم والهم الملازم، والآثار القبيحة، فيربأ بنفسه عن هذا الخلق الذميم.

ومن الأسباب رياضة النفس وتمرينها على هذا الخلق، وتوطينها على كل سبب يدرك به هذا الخلق الفاضل، فيوطنها على معارضات الأقوال، وأنه لا بد من مخالفتهم في العلوم والإرادات، ولا بد أيضا من أذية قولية أو فعلية، فليتوطن على تحمل الأذى، وليعلم أن الأذى القولي لا يضر إلا من قاله. وإن من الحزم والقوة أن يكون الإنسان بحيث لا يتأثر بكلام يقصد به إحفاظه وإغضابه، بل يعلم أنه إذا غضب أو تأثر، فقد أعان المتكلم على نفسه، وإن لم يبال به ولم يلقه باله ولم يهتم به ويكترث به فقد قابل القائل بما يكرهه؛ لأن جل مقصد عدوه إيلام قلبه، وإدخال الهم والغم والخوف على قلبه، فكما يسعى بدفع ما يريد إيلام ظاهره، فليسع بدفع ما يريد إيلام باطنه بترك الاهتمام به.

وما أنفع في هذا المقام وغيره أن يجعل الإنسان نصب عينيه وجل مقصده الإبقاء على قلبه من المشوشات والواردات المؤلمة، وأن يحفظ راحة قلبه بكل ما يفضي إلى الراحة من تحصيل الأسباب المريحة للقلب، ودفع كل معارض لها، فإن راحة القلب أصل طيب العيش في هذه الدار، فلو كان الإنسان بكل نعيم، وتوفرت لديه أسباب الراحة، وقلبه في قلق

وحرج، لا يخرج من هم إلا وقع في آخر، ولا يفرح بموجود ومحبوب إلا وجد حشو قلبه ما يكدره، فإنه حتى الآن لم يصل إلى المقصود الذي يسعى له أهل العقول الراقية، فإنهم يسعون أولًا لراحة قلوبهم وطمأنينتها بالإنابة إلى الله في مهماتهم وملماتهم وأحوالهم كلها، ويتممون ذلك بالحلم وحسن الخلق، وحفظ قلوبهم من كل مشوش يكدر عليهم حياتهم الطيبة، ونعيمهم العاجل والآجل.

فتأمل في بعض قصص الأخيار وما هم عليه من الحياة الطيبة، سواء كانوا في فقر أو غنى، أو شدة أو رخاء، وحيث تنقلت بهم الأحوال، فإنك تجد الواحد منهم أبسط الناس خلقا وأروحهم نفسا وأقرهم عينا، بل تجد من هو في يسارة منهم وفقر راضيا قانعا غير متسخط على الله وعلى الخلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الرجاء ممدوح شرعا وعقلا واليأس مذموم شرعا وعقلا:

لا ريب أن الشارع مدح الرجاء الذي هو الرجاء: وأمر به وبكل وسيلة توصل إليه، وذم اليأس ونهى عنه، وأخبر أنه من موبقات الذنوب، وكذلك لما يترتب على الرجاء من المصالح والثمرات النافعة، وما ينشأ عنه من الأسباب الموصلة للمقاصد الجليلة، وما يترتب على اليأس من ضد ذلك؛ مثال ذلك: أن الراجي لرحمة الله ومغفرته بحسب قوة رجائه يسعى بكل طريق يوصل إلى الرحمة والمغفرة اللتين تعلق بهما رجاؤه، بل لا يكون الرجاء حقيقيًّا حتى يقوم بالأعمال الموصلة إلى الرحمة والمغفرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فخص هؤلاء برجاء رحمة الله لما حصل منهم من السبب الأقوم الذي تنال به الرحمة.

وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]. إلى آخر الآية التي فيها ذكر الأسباب الموصلة إلى ذلك، المحققة له، فقوة الرجاء تحمل

العبد على كل عمل صالح، فإذا عمله على الوجه المرضي، قوي رجاؤه فلم يزل في ازدياد من الأعمال، ورغبة فيما يقرب إلى الله تعالى ورضوانه وثوابه.

وكلما ضعف رجاؤه كسل عن الخيرات، وتجرأ على السيئات، ودعته نفسه الأمارة بالسوء إلى كل سوء، فانقاد لها لأنه ليس عنده من رجاء رحمة الله ومغفرته ما يكسر سورتها ويقمع شرها، ثم لا يزال الرجاء يضعف من قلبه، واليأس يقوى، فيضعف إيمانه، وتضعف دواعيه إلى الخير، كما تقوى دواعيه إلى الشر، فيقع في اليأس المحض من روح الله، فلا يزال مكبًّا على الذنوب، مصرًّا على المعاصي، لا يحدث نفسه بتوبة ولا يرجع إلى ربه لاستيلاء اليأس عليه، وضعف الرجاء، وهذا هو الهلاك المبين.

ومع أنه هلاك يرجى - إن سعى في علاجه - أن يزول وتعود الصحة، وذلك بأن يتأمل ويتفكر في الأسباب التي أوصلته إلى هذه الحال، وأنها أسباب قابلة للزوال، إذا مرن نفسه على إضعاف اليأس الذي ترامى به إلى الهلاك، وتقوية الرجاء الحامل له على التوبة والإنابة؛ لأنه إذا علم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ولو بلغت الحال ما بلغت، طمع في مغفرة ربه، واستعان به على التوبة التي هي الإقلاع عن المعاصي والندم على ما مضى منها، والتصميم على ألا يعود، وحصّل من علوم الإيمان وأعماله ما يقوي عزيمته، ويوقظ همته، خصوصا الإيمان الخاص في هذا المقام، وهو توحيده وعلمه أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وأن العبد إذا تاب توبة نصوحا، فإن الله يغفر له ويتقبل منه، فلا يزال إيمانه يمد توبته، وتوبته تمد إيمانه، ويعمل من الأعمال الصالحة ما يتم به الإيمان والتوبة، ويسلك الصراط المستقيم في علمه وعمله حتى يضمحل يأسه، ويقوى رجاؤه، ويسير إلى ربه سيرًا جميلا، فهذا كلام عام في أمور الدين كلها العلمية والعملية.

ومن مفردات هذا، طالب العلم إذا اشتغل بفن من فنونه، فبعد اشتغاله به رأى من صعوبته وبطء فهمه لمسائله ما أوجب له اليأس من تحصيله، فإنه يملكه اليأس ويدعوه إلى تركه، وكلما خطر بباله الاشتغال به أو ذكر لهذا الأمر، فإذا اليأس من إدراكه ماثل بين

عينيه كأنه حجر عظيم في طريقه، فإن هو أخلد إلى هذه، واسترسل معها قتله اليأس، ورأى هذا المطلوب من المستحيلات عليه، وإن كان موفقا ينظر إلى حقائق الأشياء على ما هي عليه، ولم يملكه الخيال الضار، علم أن الآدمي قابل لتعلم كل علم، مهيأ لذلك، وأن مجرد اشتغاله بالعلوم النافعة ولو لم يحصل منها ويستفد شيئا يذكر مصلحة وعبادة؛ لأنه تصحبه النية الصالحة، وإن لم يشتغل به إلا لنفع نفسه ونفع غيره، فلا يزال ساعيا في هذا الأمر، إذا لم يحصل له مراده أو بعضه في وقت، حدث نفسه أنه سيحصله في وقت آخر إذا استمر على السعي والاجتهاد، فيقوى حينئذ رجاؤه، وينشط في المسير في طلبه، وينفض عنه غبار اليأس حتى يرتقي إلى درجته اللائقة به.

وكما أن الإنسان يطبق هذا المعنى على نفسه فليستعمله في غيره، إذا أراد هداية أحد، أو دعوته إلى الإسلام، أو أصل من أصوله، أو فرع من فروعه، أو تعليمه لعلم نافع، ثم رأى من المدعو نفورا وإعراضا، أو بلادة وقلة فطنة، فإن أخذه الملل واليأس من إدراك المقصود منه، وعدم رجاء انتفاعه، لم يلبث إلا قليلا حتى يدع دعوته وتعليمه، فيفوت بذلك خير كثير.

وإن هو سلك مسلك نبيه ﷺ في دعوته وهداية الخلق، وعلم أنه مكث مدة طويلة يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد، فلا يلقى أذنا سامعة، ولا قلبا مجيبا، فلم يضعف ولم يَنِ، بل لم يزل قوي الرجاء، عالمًا أن الله سيتم أمره ماضيًا على دعوته، حتى فتح الله به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، وبلغت دعوته وهدايته ما بلغ الليل والنهار، فإذا جعل هذا بين عينيه، لم يشتد عليه أمر من الأمور، ولو لم يحصل له إلا أن مجرد دعوته إلى الله من أكبر الحسنات لكفى الموفق داعيا إلى الصبر والرجاء.

وكم من أمر مأيوس منه، انتقل من طي العدم إلى الوجود بالصبر والمزاولة، فلا يزال راجيًا طامعًا في إدراك مقصوده أو بعضه، ساعيًا السعي اللائق به حتى يرى من آثار سعيه خيرًا كثيرًا، وكما أن هذا المعنى ثابت في دقيق الأمور وجليلها، فخير ما استعمل هذا الأصل

المهم في أحوال المسلمين اليوم؛ حيث كانوا من زمان طويل والتفرق سارٍ فيهم، والعداوة قائمة بينهم، وكثير من مصلحات دينهم متروكة حتى تفككت قواهم، وضعف أمرهم، وتملكهم اليأس والقنوط، خصوصا إذا نظروا إلى أعدائهم الحقيقيين وقد بلغوا من القوة مبلغا هائلا؛ فحينئذ يستولي عليهم الكسل واليأس، ويتوهمون أنه كالمحال وجود قوة كافية تدفع عنهم عادية الأعداء، فضلا عن أن يكونوا في صفوف الأمم القوية، ومن حدث نفسه بهذا أو غيره، فقد حدثها بالمحال فاستولى عليهم الذل وتوهمت نفوسهم أنهم طعمة لكل أحد، وهذا ناشئ من ضعف الإيمان واستيلاء اليأس وضعف الرجاء.

فلو أنهم جعلوا الرجاء لرحمة الله ونصره وإعزاز دينه نصب أعينهم، وعلموا أن من ينصر الله ينصره، ويثبت قدمه، فسعوا بما يمكن تلافيه من أمرهم، وجمعوا كلمتهم، وجعلوا وحدة دينهم وحفظه من كل عاد هو الجامعة التي تربط أقصاهم وأدناهم، وتركوا لهذا كل ما عارضه من الأغراض الفاسدة، والأهوية الضارة، وقاموا في هذا الأمر قياما حقيقيًّا، ولم يمنعهم ما يعترض لهم من العقبات والتهويلات- لكان أول فائدة يجنونها الأمن على دينهم الذي لولاه لم يسعدوا دنيا ولا أخرى، وسلامتهم من الضربات المعدة له ولهم الموجهة إليهم، ولأمكنهم أن يعيشوا بأنفسهم ومع الأمم بطمأنينة وحفظ للمصالح الدينية والدنيوية من غير أن يضربوا بسلاح، ولا يشوشوا على أحد؛ لأن كل منصف يعذرهم حيث سعوا لحفظ كيانهم ودفع الظلم عنهم بكل طريق، وهو حق يدلي به القوي والضعيف، ثم يسعون في الاستعداد الكافي لمقاومة المعتدين.

فلو جعل الرؤساء هذا الأمر الواجب قبلة قلوبهم وجل مقصدهم، وحصل البحث التام في كيفية الوصول إلى هذا المقصد، ومن أي طريق ينفذ، ورجوا عواقبه الحميدة، لرأوا من آثاره خيرا كثيرا، فنرجو الله أن يوفق جميع المسلمين في أقطار الأرض كلها للقيام بدينهم حق القيام، وأن يكونوا يدا واحدة على من ناوأهم واعتدى عليهم، وأن ييسر لهم الأسباب النافعة، ويزيل عن قلوبهم الذي استولى على أكثرهم، فلو نظروا بأعينهم لبعض

الأمم الصغيرة الّتي عملت لوحدة مصالحها الخاصة كيف عاشت مع الأمم القوية حتى سادتهم في حفظ الحقوق والنظام والمصالح، خصوصا في هذا الوقت العصيب الذي وقع فيه التفاني بين أكبر قوة في العالم مع نظيرتها، وكل واحدة منهما تبدئ وتعيد أنها ستخرج العالم من الظلم والاعتداء، وتجعل لهم نظاما جديدا من العدل يحفظ جميع الأمم؛ فلا علينا أن يكون هذا الكلام منهم حقيقة، وإنما هو دعاية، فالمسلمون أحق الناس كلهم للتنبه لهذا الأمر، وفيهم من الكثرة والقوة المستعدة ما يؤهلهم إلى أعلى المقامات من الإيمان والعون الإلهي وقوة الرجاء، وما في دينهم من الدعوة إلى كل إصلاح ونبذ كل ضار.